قضية

الإسلاميون والحريات المثقفون

من تونس إلى مصر، يواجه الفنانون والصحافيون كل يوم تيارات التكفير والشعبوية الدينية. اعتداءات بالجملة، واستدعاءات إلى المحاكم، وتقويض ممنهج لأسس الدولة المدنية. في هذا الملفّ نقدّم شهادات وآراء كتّاب وباحثين ومبدعين يطرحون نظرتهم إلى الواقع ورؤياهم من أجل المواجهة

من الأعمال التي انتشرت خلال الحراك النسائي ضد تعديل المادة المتعلقة بالمساواة في الدستور التونسي

تونس ـ عثمان تزغارت

يواجه الفنانون والمثقفون ورجال الإعلام في تونس حملات غير مسبوقة من المضايقات والاعتداءات. لم تنتظر هذه الهجمات وصول حركة «النهضة» الإسلامية إلى الحكم، بل بدأت محاولات أبلسة المثقفين باكراً. لم يكد يمر شهران على قيام الثورة، حتى تفجرت المواجهات بين النخب الثقافية و«قوى الظلام» من الهجوم السلفي على قاعة «أفريكا آرت» احتجاجاً على عرض فيلم «لا الله ولا سيدي» لنادية الفاني، إلى الاعتداء على السينمائي الطليعي النوري بوزيد على أيدي شباب «النهضة»، وإطلاق بعضهم نداءات علنية إلى تصفية صاحب «صفائح الذهب» (راجع شهادته). ولا يكاد يمر أسبوع من دون أن تضجّ وسائل الإعلام باعتداء أو هجوم جديد على مثقفين وإعلاميين مناوئين للإسلاميين، إذ طاولت الاعتداءات عشرات الفنانين والكتاب والإعلاميين والجامعيين. وتحولت شبكات التواصل الاجتماعي التي لعبت دوراً لافتاً في إطاحة ديكتاتور قرطاج إلى ساحة للتكفير والتخوين.

الحبيب بلهادي، رفيق درب الفاضل الجعايبي وجليلة بكار في فرقة «فاميليا» المسرحية، ومدير قاعة «أفريكا آرت»، كان طرفاً في أول مواجهة ضد قوى «الردة الثقافية» في موطن الشابي. ما زالت هذه القاعة الثقافية المرموقة مغلقة بحجج بيروقراطية منذ الهجمة السلفية التي استهدفتها في نيسان (أبريل) من العام الماضي. يقول: «ما حدث من تجاذبات وهجمات على الثقافة والمثقفين خلال الحملة الانتخابية الأخيرة، وما تشهده تونس منذ تولي السلطة الحالية من تضييقات على الإعلاميين واعتداءات على الفنانين والمثقفين، لم تأت من فراغ. بل كانت نتاج خطة مبيتة سعى الإسلاميون من خلالها، وعلى مدى أشهر، إلى جعل المطالبة بالحريات مرادفاً للكُفر في أذهان أنصارهم. وهذا يفرض علينا اليوم كمثقفين أن نسهم في بلورة ثقافة مقاومة من أجل الصمود في وجه تيارات التكفير والشعبوية الدينية، والتصدي لكلّ ما يشكل مساساً بالحريات أو تهديداً للمكتسبات الديموقراطية في البلاد».

ويضيف أنّ «أحداً لن يثنينا عن الاستماتة في دفاعنا عن الحريات. لم ينجح في ذلك بورقيبة ولا بن علي سابقاً. ولن ينجح اليوم الغنوشي ومن معه».

كلام يصدّق عليه السينمائي النوري بوزيد، قائلاً إنّ «تركيبة السلطة الحالية تثير فيَّ الكثير من الخوف. لا أخاف على نفسي من التهديدات، فأنا مستعد للموت من أجل أفكاري، بل أخاف على مستقبل بلادي وأبناء بلادي. التضييقات الحالية لا تستهدف المثقفين فقط، ولا تهدّد الحريات فحسب، بل هي أخطر من ذلك. إنّها تشكّل تهديداً لتوازنات المجتمع بأكمله. وهي توازنات تشكّلت على مدى عقود، وإذا حصل الإخلال بها، فإنّ ذلك يهدّد بتقويض لحمة المجتمع التونسي. لذا، على كل القوى التقدمية أن تتصدى لهذا الخطر الداهم. ويجب أن نجعل أولويتنا الدفاع عن دعائم الدولة المدنية. من دونها لا يمكن أن يكون هناك أي فضاء للحرية أو التعددية أو الديموقراطية».

أما عن أسباب ضمور دور النخب الثقافية في تونس ما بعد الثورة، فيقول المسرحي توفيق الجبالي: «الأحداث المتتابعة منذ الثورة كشفت لنا أنّنا كنخب ثقافية وفنية، كان لدينا تصور افتراضي وخاطئ لمجتمعنا. نحن الآن نكتشف كل يوم شيئاً جديداً عن هذا المجتمع. هذا الأمر لا يجب أن يدفعنا إلى إعادة النظر في قناعاتنا وآليات تفكيرنا، لكنّه يتطلّب منّا مراجعة جذرية لآليات عملنا وأساليب تواصلنا مع مجتمعنا. ولعل هذه الهزة هي التي تفسِّر الكثير من الفراغ والاكتئاب حتى لا نقول اليأس الذي تعاني منه بعض نخبنا». ويضيف صاحب «هنا تونس»: «هناك اليوم مشروعان مجتمعيان في بلادنا، أحدهما حداثي والآخر أصولي. وداخل كل واحد من هذين المشروعين، هناك الكثير من التخبط وعدم التجانس في الرؤى والأفكار. وهذا نابع من كوننا نخوض تجربة جديدة، ونواجه واقعاً مغايراً بعد التحولات الجذرية التي جاءت بها الثورة. وهذا الوضع المستجد جعلني شخصياً أعيش مرحلة تأمل أسعى خلالها إلى قراءة وفهم هذا الواقع الجديد. ولا أعتبر نفسي عنصراً فاعلاً في الأحداث رغم أنّي كنت أول من قدّم عملاً مسرحياً بعد الثورة أثار مواضيع الديموقراطية والانتخابات وحق المواطنة وحرية القرار. لكنّني لا أؤيد انخراط النخب الفنية والثقافية حالياً بشكل مباشر في العمل السياسي، لأنني أعتقد أنّ دورنا ليس صناعة الحدث، بل إعادة صياغة الواقع من موقع نقدي. لكن هذه المسافة النقدية لا تمنعنا، بالطبع، من تثمين ومساندة كل القوى التقدمية والحداثية».

> **ما زالت قاعة «أفريكا آرت» مغلقة بحجج بيروقراطية منذ الهجمة السلفية التي استهدفتها العام الماضي**

أما الإعلامي عبد الحليم المسعودي، الذي طالته

«النهضة» تنادي بقتلي

النوري بوزيد*

بعد صدور فيلمي «صفائح الذهب» (1988) الذي ربطتُ فيه بين الحريات السياسية والشخصية وحرية المعتقد، أصدرت «النهضة» حكماً بالإعدام ضدي، وتم تعليقه طوال 7 أو 8 أشهر في الجامعات عام 1990، وكانت حجتهم أن الفيلم يروِّج للإلحاد. بعد الثورة، جدَّدت النهضة نداءات المطالبة بقتلي. في تجمع سياسي نهضوي رسمي عُقد في قصر المؤتمرات في تونس العاصمة يوم 17 نيسان (أبريل) 2011، أدى مغني الراب المنتمي إلى «النهضة» Psycho M أغنية تقول: «يجب إفراغ الكلاشنكوف في مخرج «ماكينغ أوف» (أحد أفلام النوري بوزيد . 2006)، وقُوبلت تلك الأغنية التي وصفتني بـ«عدو الله» بموجات من التصفيق وصيحات «الله أكبر». ولم يعترض على ذلك قادة «النهضة» الحاضرون. بعد تلك الواقعة بيومين، تم الاعتداء عليَّ بالضرب من قبل شبان إسلاميين إثر مشاركتي في نقاش ثقافي في جامعة تونس.

كل هذا يدفعني إلى الاعتقاد بأنّ «النهضة» لم تتغيّر، ولم تتخل عن منهج العنف. بالطبع، بعد فوزها في الانتخابات، تحاول أن تظهر بوجه مغاير، لأن لعبة السلطة تقتضي منها ذلك. لكنّ هذا الوجه المعتدل والمُطمئِن الذي يروّج له قادة «النهضة» تخونه تصرفات العنف التي تصدر عن مناضليها وأنصارها. ومن الأمثلة على ذلك أنّني تعرضت، بعد الانتخابات بيومين، إلى اعتداء جديد على يدي شاب من «النهضة» في أحد الأسواق الشعبية، حيث تهجم عليَّ بعنف واتهمني بأنني «كافر».

هناك حالياً خطاب نهضوي جديد يسعى إلى إيهام الناس بأنّ الحركة «ليست أصولية» ولا تنادي بتطبيق الشريعة. لكن أعتقد أنّ «النهضة» تقول ذلك اليوم لأنها لا تحظى بالأغلبية وحدها، وتضطر للتحالف مع أحزاب أخرى. مشروع «النهضة» الأصولي بعيد المدى. ومخططاتها وأهدافها الخفية لا تدفع إلى الاطمئنان إطلاقاً على مستقبل البلاد والحريات. لذا، فإنني في فيلمي الجديد أتوقع لنفسي نهاية فاجعة، حيث قمتُ بتصوير موتي بكل تفاصيله وطقوسه، من القتل إلى التغسيل إلى الكفن والدفن!

أعتبر نفسي مرشحاً للقتل. ولستُ الوحيد. هناك قوائم يدور عنها الحديث بأسماء ستة أو سبعة مثقفين على الأقل تخطّط «النهضة» لتصفيتهم، ومنهم محمد طالبي وألفة يوسف وأنا. ولا أتحدث عن السلفيين هنا، بل عن «النهضة». كل التهديدات التي أُطلقت ضدي صدرت عن «النهضة» وليس عما يسمى «التيارات السلفية».

* سينمائي تونسي